انخفاض المواليد

حسين حسين النائلي

-1-

مع كل تطور تحرزه الحضارة البشرية، تظهر مشكلة من قلب هذا التطور، ولعل مشكلة الخصوبة وقلة الإنجاب أبرز المشاكل التي رافقت شكل الحياة الحديث.
فبفترة زمنية قصيرة نسبيا، تحولت الأسرة البشرية من تجمع يضم ما بين 5-7 أفراد إلى تجمع أقل بكثير. وأقولها مشكلة لأن العالم اليوم يعتبرها مشكلة.على الرغم من عدم دقة هذه التسمية، فهي تغير لا مشكلة.

-2-

وبدأ هذا التغير مع الثورة الصناعية، وبداية اختفاء العائلة الممتدة، وحلول الاسرة الحديثة محلها. إذ أصبح الشكل المعروف للعائلة يتكون من:
زوجين مع عدد من الأبناء.
فغدت رعاية الأبناء والاهتمام بهم مسئولية تقع على رأس فردين فقط. بينما كان عدد أكبر من الأقارب يتشاركون بتحمل هذه المسئولية. وتزامن هذا مع ظهور التعليم بالمدارس وتحوله لحق لا امتياز، وخروج الأطفال من سوق العمل، فغدا الطفل يعتمد على عائلته حتى عمر أطول. ومع دخول المرأة لسوق العمل، زادت العوامل التي تدفع الأزواج لخفض الإنجاب.

-3-

والذي يلاحظ كلامي، سيدرك أن هذه العوامل التي أدت لتقليل أعداد المواليد، يجتمع أغلبها في دول العالم الأول، والدول الصناعية، التي أخذت شكل الحياة الحديثة. ولهذا نلاحظ أن الدول الفقيرة والنامية، بمجرد دخولها لعالم الصناعة، يبدأ معدل الخصوبة بالانخفاض،وخير مثال على هذا كوريا الجنوبية. وعلى ذا الأساس، سنعلم أن انخفاض المواليد ما هو إلا تغيير شبه محتوم بشكل الحياة الحديثة، بل سأقول:
-أن محاولة إقناع الأسر بإنجاب أطفال كما في السابق كمحاولة إقناع الناس بالطبخ على موقد النار بدل الطباخ.
إن انخفاض المواليد نتيجة لشكل حياة حديث، لا مجرد نزوة من العوائل، وليست حتى بسبب العبء الاقتصادي، وإن كان لهذا دور فعال.

-4-

وانخفاض أعداد المواليد في الدول الغربية ودول شرق آسيا، كان تدريجياً، ونقصانه شبه منتظم، ولكن توجد ظاهرة اسميها(الانحدار الكارثي)، فلو ضربنا المثال على إحدى الدول الفقيرة أو الآخذة بالنمو، والتي مازال معدل الخصوبة بها مرتفع. ونفرض أن هذه الدولة دخلت لعالم الصناعة، وراحت تأخذ شكل المجتمع الحديث، وانفتحت على العالم بشكل حزم انفتاح متتالية، أو بشكل دفعة واحدة، فالذي سيحدث هو انحدار مرعب وسريع بإعداد المواليد، فالعوامل التي انقصت معدل المواليد في الدول الغربية والصناعية، ستدخل بسرعة للمجتمع، والناس سيحاولون تقليد المجتمعات الاوربية. بالتالي سنرى (انحدار كارثي) بإعداد المواليد خلال سنوات قليلة وليس عبر عقود كما في أوروبا وشرق آسيا.

-5-

ورأينا في السنوات الأخيرة الماضية محاولات كثيرة من الدول لقمع هذا التغيير - تغيير الإنجاب- كإعطاء الأموال، وتشجيع العوائل على الإنجاب، أو حتى فرض ضرائب على موانع الحمل المختلفة، وأقول:

- ماهذه المحاولات إلا محاولات لمنع طوفان بواسطة سد قنادس خشبي.

إن انخفاض المواليد ليست مشكلة مؤقتة يمكن حلها، بل هي تغيير يتجذر في الناس يومٌ بعد آخر. ولا يمكن تخيل جيل (z) ينجب 5 أطفال مثلا، وككل تغيير يحدث بعالمنا، لابد لنا من التماشي معه والتأقلم معه، لا محاربته، وذلك لأن محاربة التغيير لا تفعل شيئا سوى زيادة الخسائر، وتأخير تأقلمنا معه. بعبارةٍ أبسط:

- اركب الموجة بدل محاولة صدها.

سيقول أحدهم بلا شك أن كلامي جنون. فالدول تحتاج لسكان أكثر ليكونوا عمال وجنود ودافعي ضرائب، وأن الثروة السكانية عنصر أساسي لنهوض الأمم. وأرد عليه:

- أن كلامك صواب، قبل عقود من الآن. أما الآن فكلامك غير دقيق، وفيه تجاهل لتطورات العصر. فالواقع اليوم، وبعد عدة سنين من الآن، هو أن انخفاض المواليد اليوم يتماشى بشكل متسق وصحيح مع تطور الذكاء الاصطناعي والروبوتات، والتكنولوجيا بشكل عام. فسوف تقل الحاجة للعمالة

البشرية بالوظائف الروتينية(التي تُوظف معظم البشر) وسوف تأخذ التكنولوجيا مكاننا بعديد الأماكن.

-6-

ففي الجيش، سوف تهيمن الروبوتات والأسلحة الذكية، وغالبا سيقل عدد الجنود في الخطوط الامامية بشكل كبير، وسوف أقول:
- أن في المستقبل سوف يقتصر الدور البشري في الجيوش على القيادة والتوجيه لا غير، فبدل من محاولة الحكومات جذب الشباب للجيش-وهو لن ينجذب- ومحاولة إقناع الأمهات بضرورة موت ابنائهن لأجل الوطن والشرف، لابد على الحكومات ضخ الأموال في تطوير الأسلحة الذكية بأسرع وقت، فمن يتأخر في فعل هذا سيواجه تخلفاً حقيقياً في الحروب، وعدم تحمل شعبي للتكلفة البشرية الضخمة، بالتالي ثورات لإسقاط الحكومة التي تحارب، وهذا ليس رأي مستقبلي حالم مني، بل تطور منطقي لما رأيناه من تطور الاسلحة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

-7-

أما فيما يتعلق بالعمل والوظائف، فذا مثل ذاك، الذكاء الاصطناعي والروبوتات، ستقوم بأخذ أغلب الأعمال في حياتنا، بينما سيقتصر عمل البشر، الذين سيكونون قلة، على الأعمال الابداعية، والهوايات الشخصية، والقيادة والاستثمار. فقلة المواليد بهذا الاتجاه سوف تخفف عبء البطالة. التي ستأتي اذا كان السكان كُثر. فبدلاً من التركيز على عدد الناس، سيصبح التركيز على جودة هؤلاء الناس، وما سيقدمه كل فرد للحضارة الإنسانية. مما سيقلل الأعمال الروتينية بشكل كبير.
ونحن مازلنا ب(2026) وبدأنا نرى تسريح عشرات آلاف الموظفين واستبدالهم بالذكاء الاصطناعي، فما بالك بعد بضع سنين في ظل التطور السريع لهذه الثورة التكنولوجية.

-8-

فيا قارئ هذا النص، أقول لك:

-أن التغيير أساس العالم، وما الثبات إلا وهم بعقل شخص واهم. فما كان صواباً قبل سنوات قليلة قد يغدو هراءً، والهراء قد يغدو صواباً ورشداً. ولأن التغيير هو الأساس، فلابد لنا من تقبله وركوب الموجة منذ تكونها، كي لا تكبر، فنغرق تحتها.

وأقول:

- لا تُضرم النار من تلقاءِ نفسها.

وكذا انخفاض المواليد، إنما هو تغيير كُيف له المجتمع، ومهدت الفوضى و العوامل المتفاعلة ظهوره وسطوته. فبدلاً من التشبث بالأفكار القديمة، لابد لنا اليوم من التقدم للأمام وتقبل التغيير.

فحتى أقسى الصخور تتغير، فما بالك بحياة الإنسان الهشة.